



# الأنوثة والروحانية مثال مريم في تفاسير القرآن بالإشارات

طيب شويف

الأكبر عند الصوفية، كيف غيّرت حياته الروحية رؤيته للمرأة: "ولقد كنت من أكره خلق الله تعالى في النساء وفي الجماع في أول دخولي إلى هذا الطريق وبقيت على ذلك نحواً من ثمان عشرة سنة إلى أن شهدت هذا المقام وكان قد تقدم عندي خوف المقت لذلك لما وقفت على الخبر النبوي أن الله حبب النساء لنيبه، صلى الله عليه وسلم، فما أحبهن طبعاً ولكنه أحبهن بتحيب الله إليه. فلما صدقت مع الله في التوجه

كثيراً ما قيل إن مكانة المرأة سرعان ما تراجع في العالم الإسلامي بعد وفاة الرسول. إن كان ذلك صحيحاً إلى حد ما في المجال الاجتماعي فإنه بعيداً عن الحقيقة في ميدان الحياة الروحية كما نراه من خلال قراءة الكثير من المؤلفين، وخاصة منهم الصوفية. فإنهم يرون في الأنوثة الجانب الانفعالي للحق من جهة، وفطرة النفس المتوجهة إلى حب الله من جهة أخرى. فمثلاً يذكر ابن عربي الحاتمي (ت 638 هـ)، الملقب بالشيخ

إليه تعالى في ذلك من خوفي مقت الله حيث أكره ما حبه الله لنبيه أزال عني ذلك بحمد الله وحببهن إلي فإنا أعظم الخلق شفقة عليهن وأرعى لحقهن لأني في ذلك على بصيرة وهو عن تحبب لا عن حب طبيعي." ١

فنفهم من خلال القول السابق أن ذلك الحب للنساء ناتج عن طلب شهود الله في خلقه. فموقف ابن عربي من هذا الطلب موقف قطعي: من بحث بإخلاص عن هذا شهود وجد أن شهود الرجل للحق في النساء أتم وأكمل. فيقول: "إذا شاهد الرجل الحق في المرأة كان شهوداً في منفعل، وإذا شاهده في نفسه من حيث ظهور المرأة عنه شاهده في فاعل، وإذا شاهده في نفسه من غير استحضار صورة ما تكون عنه كان شهوده في منفعل عن الحق بلا واسطة. فشهوده للحق في النساء أتم وأكمل، لأنه يشاهد الحق من حيث هو فاعل منفعل، ومن نفسه من حيث منفعل خاصة." ٢

### ولادة مريم ونشأتها

يروى أن أم مريم كانت تسمى حنّة بنت فاقودا وكان زوجها عمران بن ماثان.<sup>٧</sup> كانت عاقراً لم تلد، إلى أن عجزت فدعت ربها أن يرزقها ولداً يكون خادماً للمعبد في بيت المقدس: {إِذْ قَالَتِ امْرَأَةٌ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ} ٨. منذ بداية التفسير الإشاري حاول المفسرون توضيح المعنى الروحي لكلمة "محرراً". وفي هذا الصدد يقول سهل التستري (ت ٢٨٣ هـ) في تفسير هذه الآية: "أي حررته وأعتقته من رق الدنيا من متابعة هواه ومرادات نفسه، وجعلته خادماً لعباد بيت المقدس خالصاً لله تعالى" ٩. ويذكر أبو عبد الرحمن السلمي (ت ٤١٢ هـ) بعض الأقوال في معنى كلمة "محرر"، من بينها قول محمد بن علي: "محرراً أي: يكون لك عبداً مخلصاً، ومن كان خالصاً لك كان حراً مما سواك" ١٠.

وقد سمع الله سبحانه دعاء حنة، فحملت وكانت ترجو أن تزرُق غلاماً لتهبه لخدمة المعبد في بيت المقدس. ولكنها رُزقت بنتاً، والبنت لم تكن لتقوم بالخدمة في المعبد. لذلك قالت لله تعالى: {رَبِّ إِنِّي وَصَعْتُهَا أَنْثَى وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَصَعْتَ وَكَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَى} ١١. وهناك أضافت حنة: {وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَدَرَيْتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ}. يقول عبد الكريم القشيري (ت ٤٦٥ هـ) في تفسيره للآية السابقة: "استجارت بالله من أن يكون للشيطان في حديثها شيء بما هو الأسهل، لتمام ما هم به من أحكام القلوب" ١٢.

إليه تعالى في ذلك من خوفي مقت الله حيث أكره ما حبه الله لنبيه أزال عني ذلك بحمد الله وحببهن إلي فإنا أعظم الخلق شفقة عليهن وأرعى لحقهن لأني في ذلك على بصيرة وهو عن تحبب لا عن حب طبيعي." ١

فنفهم من خلال القول السابق أن ذلك الحب للنساء ناتج عن طلب شهود الله في خلقه. فموقف ابن عربي من هذا الطلب موقف قطعي: من بحث بإخلاص عن هذا شهود وجد أن شهود الرجل للحق في النساء أتم وأكمل. فيقول: "إذا شاهد الرجل الحق في المرأة كان شهوداً في منفعل، وإذا شاهده في نفسه من حيث ظهور المرأة عنه شاهده في فاعل، وإذا شاهده في نفسه من غير استحضار صورة ما تكون عنه كان شهوده في منفعل عن الحق بلا واسطة. فشهوده للحق في النساء أتم وأكمل، لأنه يشاهد الحق من حيث هو فاعل منفعل، ومن نفسه من حيث منفعل خاصة." ٢

إن مريم هي المرأة الوحيدة التي ذُكر اسمها في القرآن. وأكثر من ذلك، تحمل السورة التاسعة عشر اسم "مريم". وفي سورة أخرى تقول لها الملائكة: {يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ} ٣. ونجد في الأحاديث النبوية أن مريم هي سيدة النساء الأولى وأفضل النساء على الإطلاق. قال رسول الله: "سيدات نساء أهل الجنة بعد مريم ابنة عمران، فاطمة، وخديجة، وآسية امرأة فرعون." ٤

"فبالتالي ليس من المدهش أن نجد المفسرين بالإشارة قد أمعنوا النظر في شخصية مريم ورمزية حياتها.

إن أصحاب التفسير الإشاري يرون في كل آية من القرآن ظاهراً وباطناً. فالظاهر هو الذي ينساق إليه الذهن قبل غيره والباطن هو ما وراء ذلك من إشارات خفية تظهر لأرباب القلوب الذين سلكوا طريق التقرب إلى الله والوصول إلى مقام الإحسان. ويرى ابن قيم الجوزية (ت ٧٥١) في التفسير الإشاري استنباطاً حسناً مقبولاً إذا كان مراعيًا أربعة شروط: "وتفسير الناس يدور على ثلاثة أصول: تفسير على اللفظ، وهو الذي ينحو إليه المتأخرون، وتفسير على المعنى، وهو الذي يذكره السلف، وتفسير على الإشارة والقياس، وهو

الخضوع والخشوع مع الخاضعين<sup>١٧</sup>."

وعند القاشاني أيضا تمثل بكاره مريم استعداد النفس لتلقي العلم اللدني: "قَالَتْ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَكَدٌّ تَعَجِبُ النَّفْسَ مِنْ حَمْلِهَا وَوِلادَتِهَا مِنْ غَيْرِ أَنْ يَمْسَهَا بَشَرٌ، أَي مِنْ غَيْرِ تَرْبِيَةِ شَيْخٍ وَتَعْلِيمِ مَعْلَمٍ بَشَرِي، وَهُوَ مَعْنَى بَكَارَتِهَا {قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يُخَلِّقُ مَا يَشَاءُ} أَي: يَصْطَفِي مِنْ شَاءَ بِالْجَذْبِ وَالْكَشْفِ وَيَهَبُ لَهُ مَقَامَ الْقَلْبِ مِنْ غَيْرِ تَرْبِيَةِ وَتَعْلِيمِ كَمَا هُوَ حَالُ الْمَحْبُوبِينَ وَبَعْضُ الْمُحِبِّينَ<sup>١٨</sup>."

### حمل مريم المسيح وولادته

ثم نزل جبريل على مريم على هيئة رجل وهي معتكفة تعبد الله ليشهرها بالمسيح: {وَأَذْكُرُ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انْتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا فَاتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا<sup>١٩</sup>}. يرى العالم المغربي أحمد بن عجيبة (ت ١٢٢٤ هـ) في الآيات السابقة إشارة إلى تنوير قلب المؤمن الناتج عن قطع العلائق الدنيوية والعزلة في عبادة الله وذكره. فيقول في تفسيره: "لا تظهر النتائج والأسرار إلا بعد الانتباز عن الفجار، وعن كل ما يشغل القلب عن التذكار، أو عن الشهود والاستبصار، فإذا اعتزل مكاناً شَرْقِيًّا، أَي: قَرِيبًا مِنْ شُرُوقِ الْأَنْوَارِ وَالْأَسْرَارِ، بِحَيْثُ يَكُونُ قَرِيبًا مِنْ أَهْلِ الْأَنْوَارِ، أَرْسَلَ اللَّهُ إِلَيْهِ رُوحًا قَدْسِيًّا، وَهُوَ وَارِدُ رِبَانِي تَحِيَا بِهِ رُوحُهُ وَسِرُّهُ وَقَلْبُهُ وَقَالِبُهُ، فَيَهَبُ لَهُ عِلْمًا لَدُنِّيًّا، وَسِرًّا رِبَانِيًّا، يَكُونُ آيَةً لِمَنْ بَعْدَهُ، وَرَحْمَةً لِمَنْ اقْتَدَى بِهِ وَتَبِعَهُ. وَبِاللَّهِ التَّوْفِيقُ<sup>٢٠</sup>." كذلك يرى روزبهان بقلي شيرازي (ت ٦٠٦ هـ) في تعبد مريم إشارة إلى جوهر الفطرة الإنسان. وتلك الفطرة متوجهة إلى حب الله والأنس به، فيقول: "الإشارة الحقيقية ههنا أن جوهر مريم جوهر فطرة القدس قرباه الحق بنور الأنس ففي جميع أنفاسها مجذوبة بنعت القرب والأنس إلى معدن الأنوار الألوهية فصارت كل وقت مراقبة بظهور شمس الجبروت من مشرق الملكوت فاعتزلت عن الأكوان بالهمة العالية المنعوتة بنور الغيب... فلما خلت بذلك النور والبرهان

إن الله تعالى قبل من أم مريم النذر، وجعله نذراً مباركاً: {فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ<sup>٢١</sup>}. يرى المفسرون بالإشارات أن الآية إشارة إلى تلقي العلم والنور. يقول ابن عربي: "الزم المحراب يأتيك رزقك بغير حساب أي الزم موضع عبادتك وذاتك، فالزم نفسك لتعرف قدرك، يأتيك رزقك بغير حساب، من حيث لا تحتسب، أي إذا اشتغلت بعبوديتك فهو يعطيك من العلوم ما تحب وتريد<sup>٢٢</sup>." وعبد الرزاق القاشاني (ت ٧٣٠ هـ) أكثر وضوحاً في تفسيره للآية: "ووجد عندها رزقاً يجوز أن يراد به الرزق الروحاني من المعارف والحقائق والعلوم والحكم الفائضة عليها من عند الله، إذ الاختصاص بالعندية يدل على كونها من الأرزاق اللدنية<sup>٢٣</sup>."

### اصطفاء الله لمريم

فنشأت مريم في خدمة المعبد، وهي المنذورة المقيمة في المحراب، فكانت فتاة عابدة قانتة في خلوة المسجد تحيي ليلها بالذكر والصلاة وتصوم النهار. فنزلت عليها الملائكة لتخبرها أن الله اصطفاه على نساء العالمين: {وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ<sup>٢٤</sup>}. إن اصطفاء الله لمريم يمثل تنزّه المؤمن المخلص عن الشهوات في تفسير القاشاني: " وكذا قالت ملائكة القوى الروحانية لمريم النفس الزكية الطاهرة {إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ} لتتنزهك عن الشهوات {وَطَهَّرَكِ} عن رذائل الأخلاق والصفات المذمومة {وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ} نفوس الشهوانية الملونة بالأفعال الذميمة والملكات الرديئة {يَا مَرْيَمُ} أطيعي لربك بوظائف الطاعات والعبادات {وَاسْجُدِي} في مقام الانكسار والذل والافتقار والعجز والاستغفار {وَارْكَعِي} في مقام

# كلام الحكيم في كلام الله

الصفات والذات<sup>٣٢</sup>."

وخلاصة القول إن مريم تمثل في القرآن، حسب المفسرين بالإشارة، القلب الطاهر المتبتل إلى ذكر الله وعبادته. ولنتم هذا المقال بتفسير إشاري معاصر ترجمت إلى العربية مقطعا للمفكر الألماني الأصل والصوفي المشرب فريتيوف شوون (ت ١٩٩٨)، يبين فيه أن مريم تمثل حياة القلب الروحية:

"{وَمَرِيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا وَصَدَّقْتَ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتِبَ عَلَيْهَا إِتْقَانُ الْإِسْلَامِ مِنَ الْأَقْبَانِ}"<sup>٣٣</sup> إن العبارة القرآنية {أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا} التي تعبر عن حالة جسدية معينة ترمز في الوقت نفسه إلى القلب: فالله سبحانه يزرع في القلب المتبتل إليه عنصرا من طبيعته جل وعلا لينفتح على التعالي الحاضر أبدا في الروح الربانية، إلا أنه يظل خفيا عن القلوب التي تصلبت حتى تبعثرت وتدنست. وتصور آية {فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا} نفس الروح التي

فبان لها نور صدر من تجلي الجلال والجمال<sup>٣١</sup>." رغم ما قاله روزبهان بقلي عن ظهور نور الأنس للنفس الزكية، يميز هذا المفسر بين الناسوت واللاهوت ويبين أن سبب تمثل الروح في صورة بشرية هو "عجز الناسوت عن إدراك اللاهوت: {فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا} إذا فرغنا من وصف القدس اللاهوت عن الناسوت وعجز الناسوت عن إدراك اللاهوت وتنزيهه جلال الحق عن ممازحة الخلق وإفراد القدم عن الحدوث وعزة جماله وكبرياء أزلتيه عن المماثلة والمشابهة، نقول إن إرسال الحق روحه إليها أن ذلك الروح ظهور تجلي قدس الذات في نور الصفات ونور الصفات في لباس الأفعال على صورة حسنة مرغوبة إليها ميل كل روح بنعت الشوق إليها وذلك روح الفعل وروح الصفة وروح الذات في لباس نوره على قدر عقلها لذلك قال { فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا } وهذا عادة ظهور الحق في بداية عشق العاشقين ليجذب بها أرواحهم وقلوبهم إلى معدن تعريف

- ١٣ سورة آل عمران، الآية ٣٦  
 ١٤ الرحمة من الرحمان في تفسير وإشارات القرآن، دمشق، ١٩٨٩، الجزء ١، ص ٤٣٦.  
 ١٥ القشاني، تأويلات القرآن، الجزء ١، ص ١٨٢.  
 ١٦ سورة آل عمران، الآية ٤٢-٤٣.  
 ١٧ القشاني، تأويلات القرآن، الجزء ١، ص ١٨٥.  
 ١٨ القشاني، تأويلات القرآن، الجزء ١، ص ١٨٧.  
 ١٩ سورة مريم، الآية ١٧.  
 ٢٠ البحر المديد في تفسير القرآن المجيد، القاهرة، ١٩٩٩، الجزء ٣، ص ٣٢٦.  
 ٢١ عرائس البيان في حقائق القرآن، بيروت، ٢٠٠٨، الجزء ٢، ص ٤٥٦-٤٥٥.  
 ٢٢ عرائس البيان في حقائق القرآن، بيروت، ٢٠٠٨، الجزء ٢، ص ٤٥٦.  
 ٢٣ سورة التحريم، الآية ١٢.  
 ٢٤ Frithjof Schuon, *Forme et Substance dans les religions*, Paris, 1975, p. 114-115

تم عن معنى القربي وتدل على خفاء العطاء وعمقه. {صَدَقْتَ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتِبَ عَلَيْهَا}: إن الكلمات ترمز هنا إلى اليقين الباطن والعقل الذي يحتوي على الحقائق الميتافيزيقية، والكتب هي الوحي الذي جاء من الظاهر، وحتى تكون قد آمنت. و{صَدَقْتَ} يعني لا التسليم بصعوبة وبسطحية الذهن، بل الإيمان الصادق، أي الإيمان الذي يوافق النتائج الباطنة ولا الظاهرة التي يقتضيها الحق، ولذا وصفها المسلمون بـ'الصدّيقة' التي آمنت حقا وصدقا.

{وَكَاذَبْتَ مِنَ الْقَائِنِينَ}: إن المصطلح العربي 'قنوت' يعني دوام العبادة والذكر والاستغراق فيهما، وهو ما يصور مريم التي أمضت طفولتها وصباها في المحراب فكانت تجسيدا لذكر الله والمشاهدة<sup>٢٤</sup>.

من خلال تأمل الإشارات التي تخص بحياة مريم يبدو لنا أنها رمز للنفس المتبتلة إلى ذكر الله وعبادته. فالأنوثة تتجلى هنا كقابلية لتلقي النور الرباني. إذًا بوسع كل مؤمن، سواء أكان ذكراً أم أنثى، أن يجد تلك الأنوثة الروحية في عمق ذاته.

## المراجع

- ١ الفتوحات المكية، الجزء ٤، ص ٨٤.
- ٢ فصوص الحكم، ص ٢١٧.
- ٣ سورة آل عمران، الآية ٤٢.
- ٤ رواه الطبراني بإسناد صحيح.
- ٥ الإحسان، كما عرفه الرسول، "أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه، فإنه يراك".
- ٦ مناع القطان، مباحث في علوم القرآن، القاهرة، ١٩٩٥، ص ٣٤٧.
- ٧ كذا سماه المفسرون.
- ٨ سورة آل عمران، الآية ٣٥.
- ٩ تفسير التستري، بيروت، ٢٠٠٢، ص ٤٨.
- ١٠ انظر تفسيره للآية ٣، ٣٥ في حقائق التفسير، بيروت، ٢٠٠١.
- ١١ سورة آل عمران، الآية ٣٦.
- ١٢ القشيري، لطائف الإشارات، بيروت، ٢٠٠٠، الجزء ١، ص ١٤٤.